ذهب الإذاعة والتلفزيون العتيق يحكي رحلته لـ «الوطن»

محمد قطان لـ«الوطن»: دربني الأمير يحيى الشهابي ستة أشهر قبل أن يقدمني للمايكريفون

سارة سلامة

محمد قطان كنز التلفزيون السوري الثمين كان ومازال إلى اليوم باقياً، فهو نجم شاشة الستينيات والسبعينيات التي استطاعت بلونيها الأبيض والأسود توثيق أهم المجريات، ولم يكن لشغفه وحبه حدود حيث واظب منذ صغر سنه على متابعة الإذاعة من كثب وأحب وعشق هواها وتابع بدقة ولاحظ بشغف ما يبث في الإذاعات وجرب وكتب وتعب إلى أن وصل وقدم وأعد وأخرج وعمل فيها سنوات طوالاً، وفي المرحلة الابتدائية كان يسكن مع عائلته المؤلفة من خمسة شبان وابنتين في حيّ دمشقي يدعى «سيدي عامود» والآن معروف باسم «الحريقة»، عاش في كنف بيته الصغير الذي كان قريباً من المكتبة الظاهرية، إلى أن دفعه شغفه بزيارة المكتبة وأصبح يسكن فيها ساعات، ودرس في مدرسة التجهيز الأولى التي ضمت أفضل المدرسين ومن أساتذته في اللغة العربية كان كل من جميل سلطان وعبد الهادي هاشم، وعندما ضرب البرلمان هرع والده مسرعاً يبحث عنه مطمئنا وعندما عجز من إيجاده أخبرته أمه بأن محمد لا بد أن يكون في المكتبة الظاهرية وبالفعل وجده هناك يقرأ ولم يكترث لكل ما يجري خارجاً.

ليعيش بعدها في الإذاعة حيث كان جندياً حقيقياً في ساحة لا تقل أهميتها عن ساحة المعركة، وكان من المؤسسين للتلفزيون العربي السوري وشهد الولادة والنشأة وعاصر البدايات، ومر عبر محطات متعددة وعايش الوحدة بين سورية ومصر، وحرب تشرين التحريرية وغيرها الكثير من الأحداث المهمة، إضافة إلى ذلك علّم ودرّس الإعلام في الجامعة وكان أباً وأخاً لطلاب كثيرين استفادوا من تجربته. اليوم يحل ضيفاً على جريدة «الوطن» التي خصها بحوار يضيء فيه على جانب من حياته وبدايته وأبرز برامجه وأجمل المحطات والذكريات وكان هذا الحديث..

يبدو أول الصورة في بداية عمله الصحفي وفي الصورة رئيس الجمهورية آنذاك هاشم الأتاسي

محمد قطان اليوم في مكاتب «الوطن»

مع زملائه الذين فازوا بمسابقة المذيعين معاً

البدايات

يروي محمد قطان نثرات عن بداية دخوله عالم الإعلام والإذاعة والصعاب التي رافقته ويقول: «كنا في المدرسة معتادين تقديم شيء يشبه لوحة الحائط، إلا أنني قدمت نشرة اسميتها «صيحة الحق»، وأول عدد صدر عام ١٩٥٥ عندما كنت كشافاً وكتبت مقالاً عن الكشفية وأهميتها، إلى أن تعرفت على أستاذي في مدرسة التجهيز الأولى عبد الكريم الكرمي».

وكان قطان في مرحلة يجذبه ما يقدم عبر الإذاعة وتدهشه تلك البرامج فحاول أن يبتكر جاهداً برنامجاً خاصاً به من دون أن يقلد ويتابع قطان: «كنت أراقب في إذاعة القاهرة برنامجاً للأطفال يقدمه مذيع يدعى «بابا شارو»، وتعلمت منه الكثير وهذا ما دفعني لكتابة برنامج وتعبت به جداً ولكني لم أنقل بل استوحيت، وقدمته للأستاذ عبد الكريم ليقرأه ولكني فوجئت عندما أعاده لي لسبب غير مفهوم وقال عندما تكبر ستكتب غير ذلك معللاً بأن الكتابة والأسلوب ليسا من تأليفي».

وكان قطان بحاجة ملحة لإثبات صدق قلمه وصفاء ذهنه وسعة خياله فظل يحاول مراراً وكتب برنامجين مغايرين ولم يهدأ إلى أن توصل لموجه في المدرسة وطلب منه المساعدة في إقناع الأستاذ بقراءة البرامج وما حدث أنه: «بعد شهر من ذلك وبينما كنت جالساً في الصف قال لي الموجه بأن الأستاذ يريد رؤيتك وذهبت إليه مسرعاً فقال لي إذا كانت تلك كتابتك فسأطلب منك أن تعدني بأن تبقى تسير على هذا الخط وألا تخذلني أبداً، ووعدته بذلك وبارك لي بالبرنامج، وكنت حينها في المرحلة الثانوية حيث أعددت وأخرجت البرنامج واستعنت بصديق موسيقي اسمه أحمد أصيل ليضع الموسيقا».

وبقي كذلك حتى رآه المذيع عبد الهادي البكار الذي أعجب ببرنامجه وأبلغه في الوقت نفسه إعجاب الأمير يحيى الشهابي به وطلب مني أن يأتي بطلاب لديهم مواهب في الشعر والأدب وبالفعل عمل معه، وبعدها التقى بفؤاد شحادة الذي كان يقدم برنامج «مجلة الإذاعة» وعمل في البرنامجين، وتابع قطان: «بينما كنت أعد للبرنامج أتى الآذن وأخبرني أن مدير البرامج يحيى الشهابي يريد مقابلتك وبالفعل ذهبت وأنا مرتجف وحينما بادرته السلام قال لي أهلاً أستاذ وفوجئت بهذه الكلمة وخاصة أنني ما زلت طالباً وأخبرني أنه سيجعل مني مذيعاً لأن أدائي جميل ولغتي سليمة، وكنت حينها طالباً في الثانوية وقام بتدريبي وحيداً ٦ أشهر وطلب بعدها أن أقدم برنامجاً موجهاً إلى أميركا الجنوبية يبث في الساعة ٢ ليلاً وينتهي ٤ صباحاً».

جدتي بالملاءة تقابل يحيى الشهابي

وكان هذا الخيار صعباً ويقع بين الحلم الذي راود الخيال وبين واقع المعيشة القديمة آنذاك أي على الرغم من فرحته إلا أنه خاف من غضب والده وهو شيخ وصاحب دين ولا يقبل أن يعمل ابنه في الإذاعة، وكثيراً ما تحايل عند وجود والده يوم الجمعة في المنزل وأخفى صوت المذياع لأن في برنامج الأطفال يذكر اسمه في الإعداد والإخراج.

وبعد جلسة تفكير طويلة لم يجد من يقف إلى جانبه ويسانده سوى جدته التي تتمتع بجرأة كبيرة وكانوا يسمونها باللغة العامية «أخت رجال» وهي ترتدي الملاءة ومغطاة بأكملها وقام بإخبارها بالموضوع وما حدث: «إنها في البداية لم تصدق وقالت إن كنت صادقاً فخذني إلى يحيى الشهابي وبالفعل ذهبنا إليه وقالت له سيدي إن محمد تربى على أيدينا تربية قديمة، ونظر إليها الشهابي وقال فهمت ما ترمين إليه من لباسك، ولم تهدأ جدتي حتى أخبرته أنها تريد أن تأتي معي مرة أو مرتين لتتأكد بنفسها من جدية ما يحدث، ولم يمانع الشهابي بل رحب بها وفعلاً قدمت معي مرتين أو أكثر وكانت سعيدة وفخورة بي جداً، وأصبح لدي راتب من دون أن أكون موظفاً وفق نظام «البونات»، وكان كل ذلك من دون علم أبي وداومت جدتي على فتح الباب لي وإغلاقه ورائي بهدوء».

في الجامعة

وبعدها انتقل إلى المرحلة الجامعية ودرس الأدب العربي إضافة إلى عمله في البرنامج، وعندما هيؤوا كوادر التلفزيون في العام١٩٥٨ قدم على مسابقة هو والكثير من رفاقه مثل خلدون المالح ومروان شاهين واسماعيل حبش وحنان كنعان، والمفارقة كانت عندما نجح الجميع باستثنائه وذلك لأسباب قد تكون سياسية، وتابع عمله من غير أن يكون موظفاً، وعن مجريات ما حدث قال قطان: «عندما حدث الانفصال طلب مني الشهابي أن أعود وأقدم مجدداً على مسابقة كانت في عام ١٩٦٢، ونجحنا وفرزنا أربعة ومنهم مهران يوسف وأحمد زين العابدين وغيرهم، وعند تسلم الشهابي مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون كلفني برئاسة شعبة المذيعين ومسؤولاً عن الفترة اليومية إضافة إلى رئيس التنفيذ أي الفترة التي يفتح فيها التلفزيون السادسة مساء وعند إغلاقه في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وبقيت هكذا منذ العام ١٩٥٩ إلى العام ١٩٧٠، إلى أن أتى مدير يدعى عطية الجودة وأخذ كل برامجي وكنت وقتها في السنة الثالثة بالجامعة، فقدمت على إجازة مدة شهر وذلك لأكمل دراستي حيث كنت في تأجيل مدة ٩ سنوات من أجل الإعلام، ووصل طلب الإجازة إلى مدير برامج ومخرج عراقي اسمه فيصل الياسري، الذي فوجئ بالكتاب وذهب به إلى المدير العام متجاوزاً مدير التلفزيون، وقال له قبلت إجازته ولكن أتمنى عليك أن تأتي بغيره لأنه يعمل في هذه المهمة منذ ما يقارب ٨ سنوات وهو عاشق لعمله نجده قبل ساعة من افتتاح المحطة يهيئ المخرجين وعندما تغلق في الساعة ١١ ليلاً يبقى للساعة الواحدة يراقب كل شيء ويهتم بالنشرات وحتى إذا غاب مذيع يكون مكانه لذلك أتساءل من أين ستأتي بمثله؟!».

> شكلنا فرقة مسرحية خارج المدرسة أنا وعبد الرحمن آل رشي وعادل خياطة ولم أمثل لأن والدي يرفض ذلك

التجربة المسرحية

عندما تخرج قطان في المدرسة أسس فرقة مسرحية هو ومجموعة من الطلاب ومثلوا على مسرح المدرسة، وكانت المسرحية باسم «وامعتصماه»، ويقول عن تلك المرحلة: «شكلنا فرقة فنية خارج المدرسة مع عادل خياطة وعبد الرحمن آل رشي وعدة أسماء أخرى باسم «عبد الوهاب أبو السعود»، نسبة إلى هذا الفنان التشكيلي المشهور، وكان مركزها قريباً من التجهيز الأولى، ونقلنا هذه الفرقة إلى ناد سميناه «النادي الشرقي» وكانت أولى نتائجه مسرحية تم إخراجها بين عادل خياطة ونهاد قلعي باسم «ثمن الحرية»، في دمشق وبعدها في القاهرة ومثلت معهم في دمشق ولكنني لم أستطع السفر معهم إلى القاهرة كي لا يعلم والدي أنني أمثل، وتابع قطان: إنه «عندما استلم نهاد قلعي المسرح القومي أخبرني بأنه يرغب في انضمامي إلى المسرح وبأنه سيعطيني دوراً بطولياً، وكان جوابي من دون تأن الرفض وذلك لأن والدي لن يقبل في أن أكون ممثلاً على المسرح إضافة إلى أنه ليست لدي رغبة فعلية بذلك».

في حلب

وفي عام ١٩٧٠ أصبح قطان مديراً للتلفزيون ومديراً للبرامج، وبنهاية السبعينيات كلفوه إدارة إذاعة حلب حيث لم تكن كاميرات وفي ذلك الوقت ضربت إذاعة دمشق، وعملوا إذاعة احتياطية في المالكي ووضعوا كاميرتين خوفاً من أن تضرب المالكي، وتصبح سورية بلا تلفزيون وبلا إذاعة، وطُلب منه أن يذهب بسيارة النقل إلى حلب حيث قال: «ذهبت برفقة فؤاد شحادة وزوجه وأولاده حيث كان بيته قريباً من قصف حيّ أبو رمانة وذلك في حرب ١٩٧٣، وعند اتخاذنا الطريق الدولي عند النبك رأينا أربع طائرات إسرائيلية متجهة إلى حلب ولاحظنا أن الطائرات غيرت مسارها وأصبحت باتجاهنا وطلبت حينها من السائق أن يوقف السيارة وهربنا واختبأنا على جانبي الطريق، وفيما يبدو أن الطائرات كانت قد ضربت المعسكر في منطقة النبك، وإثر ذلك ارتفع السكر عند فؤاد شحادة إلى ٦٠٠ وتوفي، وبقيت في حلب ما يقارب السنتين أو الثلاث سنوات، عدت بعدها إلى دمشق حيث كانت التفجيرات في قلب حيّ الميدان في أوائل الثمانينيات، وكحزبي قديم شغلت مكان أمين شعبة حزب الميدان لأنهم يحتاجون إلى شخص من أهل المدينة ويعرف الأحياء، وفي عام ١٩٨٥ قُلب الحزب وأصبح تنظيم وزارات وإدارات وليس أحياء وشكلوا أكبر شعبة حزب في سورية وسموها شعبة «الموظفين المركزية»، وتضم فرقاً من القصر الجمهوري ومجلس الوزراء ومجلس الشعب والخارجية والداخلية والإعلام وتتألف من ٢٠ فرقة، وأصر الدكتور زهير مشارقة والدكتور سليمان قداح على أن استلم أمين الشعبة حيث بقيت فيها ٨ سنوات، وقمت بتأسيسها وجمعنا الفرق من الشعب، وكانت الشعبة المركزية ولا تزال إلى اليوم في مَنطقة المزة، وفي ذلك الوقت أصبحت أستاذاً في الجامعة حيث أصدر السيد الرئيس في عام ١٩٨٣ مرسوماً بتدريس اللغة العربية لغير المختصين وكنت قد أنهيت إجازتي ورغبت في الحصول على دكتوراه ودرّست اللغة العربية، واستقررت في قسم الصحافة والإعلام بكلية الآداب الذي كانت تترأسه الدكتورة فريال مهنا وبقيت فيه ما يقارب١٥ سنة وبعدها سُلمت المؤسسة العربية للإعلان وبقيت فيها ٦ سنوات».

أبرز البرامج

وعن أبرز البرامج التي قدمها يقول قطان: «عملت برنامج «الهواة» وكان أول برنامج للهواة في الوطن العربي واللجنة كانت مؤلفة من سهيل عرفة وعبد الفتاح سكر وابراهيم جودت وكان قائد الأوركسترا صبحي جارور، أما أبرز المطربين الذين انبثقوا عنه فهو الفنان صفوان بهلوان وآخرون، وبرنامج آخر باسم «الباب المفتوح» وكان يبث لساعتين على الهواء وهو برنامج ثقافي فكري منوع ويتخلل الكثير من الأغاني الجميلة وكنت أذهب إلى القاهرة وآتي بآخر ما غنته نجاة الصغيرة وفايزة أحمد وغيرهما، وبرنامج بعنوان «أعرف مهنتي» حيث كنت آت بحداد مثلاً ليحكي عن مهنته ويحزرها الناس، وكنت أذهب مع الكادر كل عام لمدة ١٥ يوماً إلى حلب لأغطي فعاليات سوق الإنتاج الزراعي والصناعي ومهرجان القطن الذي يتضمن كرنفالات وأزياء عبر برنامج اسمه «التلفزيون في زيارة»، وبرنامج باسم «الحل الصحيح» وبعدها تم تغيير اسمه إلى «أوائل الطلبة» الذي يتضمن فريقين واحداً بنات والآخر بنين والأسئلة كانت من كتب البكالوريا، وشاركت ببرنامج «مجلة التلفزيون» في عام ١٩٦٢ وهو برنامج منوع وثقافي وكنت وحيداً كرجل ومعي ٣ مذيعات على مدى تسع سنوات».

أبرز النهفات

في رحلته هذه كثيراً ما تعرض لمواقف طريفة أخبرنا عن بعضها وقال: «في أيامنا لم يكن المذيع يقرأ الخبر فقط بل كان هو من يحرره، وهذه مسألة مهمة وأذكر مرة وعند قراءتي خبراً للرئيس في نشرة الأخبار أقول فيها: «وكان سيادته انتقل إلى.. »، وبعدها طارت الورقة وهنا لم تكن باستطاعتنا التحدث مع المخرج في السماعة بل كان هناك مدير استديو يقف وراء الكاميرا ويخبرنا بالوقت المتبقي وكانت هناك دقة كبيرة بألا يظهر أحد على التلفزيون ولو أني انتظرته ليأتي لي بالورقة سأحتاج إلى دقيقتين وذلك لا يسمح به الهوا وأذكر أنني قرأت نصف الخبر من ذاكرتي لأنني كنت قد حررته وبعدها أعطاني مدير الاستديو الورقة فأعدت قراءة الخبر من أوله وكررت: آسف سأعيد عليكم الخبر».

وعند عمله كمراسل حربي في حرب تشرين حيث كان يذهب برفقة مهران إلى القنيطرة ويعمل مقابلات متعددة، انتشرت إشاعة مفادها إنني استشهدت وعندما ذهبت إلى حلب لأؤسس الإذاعة الاحتياطية لم أظهر على التلفاز مدة من الزمن لذلك ترسخت الإشاعة وكنت أقود سيارة خاصة بالتلفزيون في مدينة حلب إلى أن تعطلت وأنا في الطريق فأخذت سيارة أجرة وإذا بسائق السيارة ينظر إليّ باستغراب وقال (أيه الله يرحمك يا محمد قطان)، ربما شبهني له فقلت له هذه هويتي وخبر موتي ما هو إلا إشاعة، فما كان منه إلا أن أوقف السيارة وأنزلني بأسلوب غير لطيف وقال: احتفظ بنقودك ولا تقم بانتحال الشخصيات المهمة ولأنني لا أريد منك نقوداً إلا أني أفضل أن تقرأ لمحمد قطان الفاتحة».

«المسرح إذا روى» تكاثُفُ المسرح والإذاعة لخلق قوةِ الثقافة

أحمد محمد السح

نسمع دائماً صرخات المسرحيين السوريين التي تعرض إشكاليات المسرح ومآلاته، وبالمقابل نجد دائماً من يبذلون جهودهم في سبيل المسرح لأنهم مقتنعون دائماً أنه أبو الفنون. المسرح في سورية مثل الأدب والثقافة ذو شجون، ولكنه يبدو الأكثر شجناً، ونجد أن الاعتكاف عن الكتابة والتأليف المسرحي بدا واضحاً في نشر المسرح المكتوب، فقد صار نادراً بين دور النشر من ينشر مسرحيةً مكتوبةً لموهبة جديدة والأندر أن تجد مسرحاً معروضاً من نص لكاتب شاب، لكن كلمة الحق تقال إن السوريين لا يتوقفون عن العمل والاجتهاد والمحاولة التي ينتج منها الإبداع دائماً وهذا ملحوظ في تجربة المسرح السوري اليوم وسابقاً، وعلى الجانب الآخر فإن الدراما الإذاعية صارت اليوم تعاني نقص الاهتمام، فلولا القطاع العام الوحيد المنتج لها في سورية في دائرة التمثيليات لاندثر هذا الفن الجميل، فقد اعتكف القطاع الخاص عن الاستثمار في هذا المجال الإبداعي الذي يعمل فيه مجموعة من الفنانين السوريين الذين يجتهدون في وضع أصواتهم على أعمال إذاعية تنتج بشكل يومي في ذاك الإستديو الرائع، غير منتظرين التصفيق أو بهرجات الشهرة التي يعرفها أكثرهم، ويتجاهلونها لأنهم أهل فن لا أهل استعراض، التجربة التي لفتت الانتباه عبر إذاعة دمشق قبل فترة كانت فكرة البرنامج الإذاعي «المسرح إذا روى» هذه الفكرة التي يتكاتف فيها عشاق المسرح والإذاعة وهم من الضفة ذاتها لا من ضفتين متقابلتين لتدعيم الثقافة لدى المستمع بتقديم نصوص مسرحية على هيئة مسلسل تلفزيوني، فكل حلقة تعرض مسرحية كاملة. قد يبدو هذا عادياً لأن كثيراً من النصوص في الدراما الإذاعية، هي في الأصل نصوص مسرحية، لكن الخطورة التي يجتهد عليها صناع البرنامج تكمن في عرض المسرحية كما كتبت عبر إعداد إذاعي خاص يحافظ على الأداء المسرحي، مستخدمين فكرة بسيطة تقوم على وجود مشاهدين هما رجل وزوجته وهما الفنانان «علي صطوف ورنا زرقة» يقومان بالتعليق على المسرحية في بدايتها مستعرضين شيئاً من السيرة الذاتية للكاتب، أو بعض مزاياه الإبداعية عبر حالة حوارية بعيدة عن المباشرة المملة، فهذه أحاديث تدور بين أي اثنين في طريقهما لحضور عمل مسرحي، وقد يشيران إلى فكرة المسرحية بشكل لا يفقدها فكرتها وجوهرها وشغف المستمع للاستماع إليها، كما يتم ذكر العبارة التي تقالُ مسجلةً في المسارح وقت افتتاح العرض حول إغلاق الهواتف النقالة والامتناع عن التصوير أثناء العرض، في إشارة لبدء العرض المسرحي. يتجاوز معد الحلقة الإذاعية مسألة نقل الجهد السينوغرافي عبر الصوت في حوار بين الشخصيتين حيث يشير أبطال العمل إلى ما يشاهده على الخشبة من ديكور وأشكال بعض الشخصيات؛ مثلما يشير الكاتب المسرحي في ترويسة كل مشهد إلى مكان حدوث المشهد ويوصف بعض شخصياته ثم يبدأ العرض، الذي يكون بالفصحى أو العامية، مجتهدين على تحويل عمل مسرحي بكل صرخاته وانفعالاته عبر الإذاعة ليدمج الممثلون جهد الإذاعة وجهد المسرح معاً وهذا ما يعرف أهل الاختصاص أنه ليس بالأمر البسيط، إخراجاً وتمثيلاً، بل إنها من الأفكار الشجاعة التي بدأت فيها دائرة التمثيليات، من أجل دعم المسرح السوري أولاً وتقديم الثقافة الحقيقية عبر الإذاعة لا ملء البث الهوائي فقط، وهو جهد يحمله مخرجاً منفذاً «فراس محلى» وتخرجه إذاعياً الفنانة «ثراء دبسي» ويقوم بأدائه مجموعة من الممثلين السوريين العاشقين للإذاعة وفي برنامج كهذا يقتضي الأمر أن يكونوا عشاق مسرح، ويتجاوز البرنامج عقدة النص الأجنبي المترجم الذي درج إخراجه عبر خشبات المسرح السوري لفترة ليست بالقصيرة، لكن البرنامج يبدأ مشواره – الذي نأمل أن يكون طويلاً – مع المسرح السوري لرواد المسرح السوري كسعد الله ونوس، وممدوح عدوان، ووليد إخلاصي، ورفيق الصبان، وغيرهم كثيرون فهم دائماً ما يبحثون عن نصوص مسرحية يستندون إليها، في برنامجهم سواء نفذت على الخشبة سابقاً أم لم تنفذ، وهذا يشكل رافداً ثقافياً جديداً للمهتم في الاطلاع على نصوص مسرحية لم يحصل عليها المستمع مكتوبة ولم تعرض على الخشبة، كما تضع المخرجة ثراء دبسي على عاتقها فكرة الانتقال إلى المسرح العربي في مرحلة لاحقة وصولاً إلى المسرح العالمي، لكنها تجد أن الوفاء ولو عبر الإذاعة لزملاء جيلها من مبدعين مسرحيين جعلوا للمسرح السوري بصمته وعبّدوا طريقه الوعرة وفتحوا المجال أمام الأصوات المسرحية التي استمرت في تقديم النصوص المسرحية، يعدّ خطوة لا بد من الوقوف عندها في تقديم الصحيح من الفن والثقافة للإنسان السوري الذي هو الغاية لكل فنان أصيل.

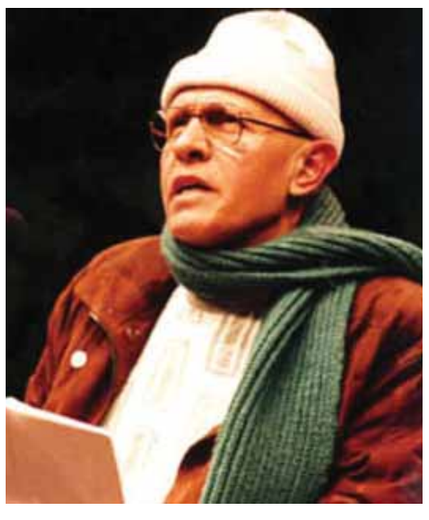

سعد الله ونوس

ثراء دبسي

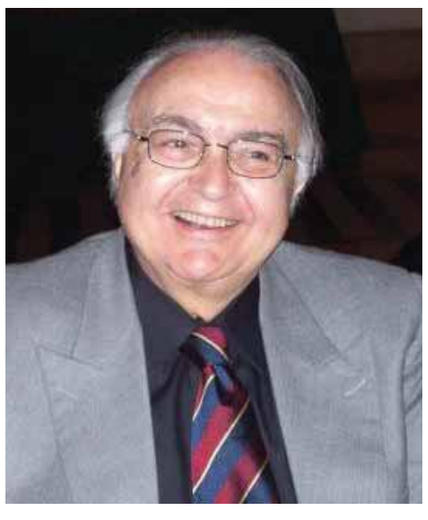

وليد إخلاصي